

القضية الفلسطينية في كتابات الاستاذ الدكتور عماد الدين خليل

أ.د. ذنون يونس الطائي *

المخلص:

للمؤرخ الدكتور عماد الدين خليل اراء حول القضية الفلسطينية وتطوراتها والمواقف العربية والدولية منها، اذ اوجد مقاربات تاريخية وفكرية بين ما شهدته المنطقة العربية، وبالاخص فلسطين من اطماع صليبية وما تعرضت له هي ايضا من احتلال وتوسع من قبل السلطات الاسرائيلية منذ مطلع القرن العشرين.

The Palestinian case in the writings
of professor Emad El Din – Khaleel

Prof. Dr. Thanoon .Y. Al - Tae
Abstract

Doctor Emad al-Din Khalil views on the Palestinian issue and developments and attitudes of Arab, international approaches it if find historical and intellectual close between the Arab region, particularly Palestine from greed Crusade also have been exposed to the occupation and the expansion by the Israeli authorities since the beginning of the twentieth century.

مقدمة:

لقد سبق ان انجزت بحثاً عن أ.د. عماد الدين خليل حمل عنوان (أ.د. عماد الدين خليل دراسة ابيستمولوجية في طروحاته الفكرية)، واجدني اليوم بعد قراءة معمقة في مؤلفاته وكتاباته فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، منساقاً نحو دراسة طروحاته ومواقفه من تلك القضية (المركزية) للامة العربية الاسلامية. ولا اخفي ان كتابات (مفكرنا الكبير) تأسر

* استاذ التاريخ الحديث والمعاصر/ مدير مركز دراسات الموصل.

دراسات موصلية ، العدد (٣١) ، محرم ١٤٢٢ هـ / كانون الاول ٢٠١٠ م

قارئها، وإذا خرجت من دائرة التعميم فهي تأسرنى لعدد من الاسباب اولها: ان مؤرخنا ذو عقل منظم منهجياً ومبدعاً علمياً، وكتاباته تتم عن عمق التحليل الفكري وطبيعة المضامين العقائدية، وثانيها: الاعتراف الاصيل من تاريخنا العظيم، وثالثها: روعة الاسلوب ودقة التعبيرات التي تفضي الى الهدف القويم.

وعليه فقد درست طروحاته وارهائه ومواقفه وتحليلاته من القضية الفلسطينية وقد مارست النقد لبعض منها ومقدماً للبعض الاخر حيثما اقتضى ذلك. والتي بدأها بعقد المقارنات بما حاق بالامة العربية والاسلامية منذ زمن الحروب الصليبية ومروراً بالاطماع الصهيونية والمذابح التي شهدتها فلسطين منذ مطلع القرن العشرين وحتى اواخره.

الانجاز التاريخي زمن الحروب الصليبية:

يؤمن الدكتور عماد الدين خليل بان الانجاز التاريخي لا يتشكل في الفراغ، ولا يبرز على حين غفلة، وانما هو وليد عوامل وخبرات تتنامى بمرور الزمن وتزداد نضجاً لكن ما تلبث ان تؤول الى تحقيق ذلك الانجاز. وفي هذا الاطار يرى: "ان تراكم الجهد وتأثيره المؤكد في الصيرورة التاريخية لهو واحد من قوانين الحركة التي تفسر الكثير من الظواهر والاحداث، وفي ضوء ذلك يمكن ان ندرس الانجازات التي نفذها رجل كالناصر صلاح الدين^(١)، سواء في معركة حطين^(٢) وتحرير بيت المقدس عام ٥٨٣هـ، او في عمليات استثمار الفوز التي اعقبته، وآلت الى تضيق الخناق على الصليبيين في الشام وفلسطين، تلك الانجازات التي تمنح الدارسين فرصة طيبة لأختبار اقطاب الفاعلية التاريخية وتجاوز الرؤية الاحادية في التفسير"^(٣).

ونحن نرى بان هذا خطأ يقع به الكتاب في تفسير الحوادث التاريخية وبقوا اسيري تلك النظرة او التفسير دون الاطلاع على الجانب الاخر في التفسير التاريخي، وبعدها ينهل الآخرون من ذلك، وبخاصة الكتاب المستشرقين في دراستهم وارهائهم حول التاريخ والحضارة الاسلامية.

ويشير مؤرخنا الى ان ثمة مؤشرات تنبؤنا في المزيد من حالات التوحد على المستويات المتعددة في الامة وذلك في ثلمسه الى ان بمقدور أي دارس لعصر الحروب الصليبية ان يضع يديه على المؤشرات التالية التي تؤكد التوجه الوحدوي للامة على مستويي القيادة والقاعدة:

اولاً: زوال الكيانات المنحلة.

ثانياً: زوال انشطار الشام مصر .

ثالثاً: وحدة الجماهير .

رابعاً: وحدة القيادة^(٤).

كما ان لتلك التوجهات اساليب تنفيذية تتفوق على الصيغ التنظيمية في اطار السعي لابرار عوامل الوحدة، فيعبر عن ذلك مؤرخنا بقوله: "ان بمقدور أي دارس للمرحلة التاريخية نفسها ان يضع يديه على صيغ تنفيذية شتى لهذا التوجه الوحدوي يمكن ان ندرجها في البيانات التالية:

اولاً: التحالف على مستوى القمة..

ثانياً: الاستقلال في القرار..

ثالثاً: الضم الوحدوي..

رابعاً: تكوين الامة المقاتلة..

خامساً: الضم الاتحادي.."^(٥).

نحن نرى ان هذه العوامل حينما تتوفر لأية أمة لا بد ان تحقق الظفر على اعدائها فهي مكن قوة عظيمة من الناحيتين الروحية والمادية.

ويرى الدكتور عماد الدين خليل ان واقع التجزئة والفرقة الذي عاشه العالم الاسلامي قبل اندلاع الحروب الصليبية كان واحداً من اسبابها وعبر عن هذه الرؤية بقوله: "في العقود التي سبقت وزامت الحروب الصليبية في حملتها الاولى التي بدأت في اخريات العقد التاسع من القرن الخامس الهجري كانت كل الظروف التاريخية لعالم الاسلام مهياة لزراع الجسم الغربي في جسده عبر مساحة من الارض تمتد من اعماق الجزيرة الفراتية شمالاً، حتى مشارف صحراء النقب جنوباً، وفي مدى زمني لا يتجاوز العقدين^(٦). اما عن نتائج تلك التفرة والتشتت التي مرت بها البلاد العربية الاسلامية حينذاك فقد اجمل الدكتور عماد الدين خليل ذلك بقوله: "قيمت في المنطقة اربع مستعمرات صليبية: في الرها وانطاكية وبيت المقدس ثم في طرابلس المطلة على البحر المتوسط، وفيما عدا الرها التي حررت في وقت مبكر نسبياً (٥٣٩هـ) على يد عماد الدين زنكي^(٧)، فان بيت المقدس لم تسترجع الا بعد حوالي القرن، اما الامارتان الاخرتان فقد امتد بهما العمر قرنين من الزمن، ما الذي مكن الصليبيين (الغرباء) القادمين من ديار بعيدة في اعماق القارة الاوربية من الوصول الى القدس واحتلالها"^(٨).

وهنا نقول ان تلك الظروف خيمت على الامة العربية الاسلامية قروناً ولا تزال تلك الامة تعاني من امثال تلك الاطماع حتى الان والذي جعل اوضاعها غير تلك الاوضاع التي حققت فيها الانجاز التاريخي العظيم ودحر الغزاة الطامعين.

وفي ظل تلك الظروف المارة القائمة على التجزئة والصراع والتشتت والمؤدية الى احتلال الاراضي العربية والمقدسة، يطل علينا الدكتور عماد الدين خليل متفائلاً بحتمية الانتصار ولكن عند توفر شروطه موضحاً ان الغزو الاستعماري، ايا كان لونه لا بد من ان يؤول الى الانحسار مهما طال الزمن، وان يستعيد المطلوب حقه كاملاً شرط ان يتحقق بعوامل الانتصار، وهي كثيرة ومتشعبة، لكن ابرزها ولا ريب اثنان: حماية الذات الحضارية من التفكك والذوبان والدمار وتوفير القيادة الصالحة التي تتعاطف مع الجماهير وتعرف كيف تقودها الى مشارف النصر، فضلاً عن التوازن الروحي والحضاري الى جانب التوازن في القوة المنظمة الرادعة^(٩). ويمضي مؤرخنا في ايضاح اهمية توفر القيادة الحكيمة والشجاعة واثرها في بلوغ عوامل النصر فلديه: "ان القائد يكون قوي الشخصية قديراً على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة، والشدة واللين، والعنف والرحمة"^(١٠) ويعود مؤرخنا الى التاريخ مستشهداً بنور الدين زنكي الذي جمع تلك الصفات، فضلاً عن مهابته ووقاره وشجاعته وحكمته، وحلمه والذي روع الغزاة والافرنجة في مواقع متعددة في بلاد الشام. ويركز الدكتور عماد الدين خليل على الحتمية في الانتصار عبر الازمنة المتعاقبة وولادة القادة العظام ويعبر عن ذلك بقوله: "قطلت على العالم منذ السنين الاولى للصراع ابطال قادوا المسلمين الى مشارف النصر العظيم، تسلم الواحد منهم الراية من الاخر طيلة عقود عديدة ثم سلمها للذي يليه بعد ان اضاف الى منجزات الذين سبقوه الكثير الكثير، وهكذا تم فتح الطريق امام نور الدين^(١١) وصلاح الدين وقلوون^(١٢) للسير حتى النهاية، حيث عادت الارض والدولة الى الامة"^(١٣).

فلسطين والخطر الاسرائيلي:

بوعي تام للمؤرخ وتشخيص دقيق للمتابع والمراقب للاحداث وربطه للواقائع التاريخية بعضها مع البعض الاخر، لما يمثله الخطر الاسرائيلي على المنطقة يؤشر الدكتور عماد الدين خليل، ركائز الوجود الاسرائيلي ومنطقاته واثاره على الوجود الحضاري العربي، بالارتكاز الى النسق الممتد الى الخطر الصليبي للمنطقة العربية وما يمثله من تحد بقوله: "ان وجود اسرائيل في قلب عالمنا الاسلامي، يمثل تركيزاً خطيراً لتحدي الحضارة

الغربية (الاوربية - الامريكية) لنا، مضافاً اليها كل ما يملكه اليهود من قيم ومعتقدات وقدرات ميكافيلية في عالم الصراع، لذا فهو تحد مركب (صليبي- يهودي) يسعى لتوجيه الضربة القاصمة للامة التي طالما انتصرت على هجمات الصليبيين واليهود، وطالما خرجت عبر تحدياتها وهي اصلب عوداً واقدر على الاستمرار، ومن هنا نجد هذا التجاوب العميق الذي يبدو عفويّاً - بين جماهير الغرب وقياداتها المسيحية وبين تطلعات اليهود واهدافهم^(١٤).

وبطبيعة الحال فان هناك حقيقة مسلم بها وهي ان العرب اكثر رسوخاً حضارياً وأعمق تاريخياً وعطاءً انسانياً على امتداد تاريخ العرب، واذا كان للعربي عمقاً حضارياً وكذلك اوربا - التي هي بالتأكيد اقل عمقاً حضارياً في التاريخ من عطاء العرب الحضاري- فهذا لا تجده في امريكا- التي ليست لها عمقاً تاريخياً وحضارياً-. ولا لدى اليهود في المنطقة العربية بوصفه شعب شتات ينتمون الى ثقافات ومشارب متعددة في اصقاع الارض، فهم شعب هجين غير متجانس في الالوجه المتعددة. ويتألم مؤرخنا ويرى حالة التراجع في طبيعة الوضع الراهن للامة العربية الاسلامية، وهي غير قادرة على النهوض والتناصر الاسلامي امام الخطر الماحق الذي يحيق بها عموماً، ويهدد مصيرها فيثير تساؤلات بقوله: "عندما غزا الصليبيون ديارنا في الشام وفلسطين في اواخر القرن الخامس الهجري، وطيلة مائتي سنة بعدها من محاولات الاستيطان الاجنبي في بلاد الاسلام، تداعى المسلمون من كل مكان لمجابهة العدوان، من بلاد فارس والاناضول ومن العراق والجزيرة الفراتية ومن الشام وفلسطين ومن مصر والمغرب، كانوا يتدفقون طواعية واختياراً تلبية لنداء الجهاد. الان يتساءل المرء: اين التناصر الاسلامي؟ وماذا حل بالهم المشترك^(١٥). في ذات الاطار يعبر الدكتور عماد الدين خليل عن واقع المعاناة الراهنة فيشير الى طبيعة الامكانيات التي تزخر بها الامة الاسلامية قاطبة وما يمكن ان تتجزه تاريخياً عند وعي تلك الامكانيات الهائلة وحشدها للقضية الام بقوله: "ما الذي فعلناه نحن في المدى الزمني الفاصل ما بين اغتصاب فلسطين واللحظات الراهنة، وهو المدى نفسه الذي استغرقته رحلة الصهاينة الى فلسطين، هل عرفنا كيف نوظف (التاريخ) ونعتمد مبدأ تنامي الجهد لمجابهة التحدي، هل حاولنا ان نتحقق بالقوة المالية والاقتصادية فنبنّي على سبيل المثال، سوقاً عربية او اسلامية مشتركة كالتّي شهدتها اوربا الغربية او الشرق الاقصى لكي

تكون ايدينا اكثر قدرة على الفعل في مواجهة او بمؤازرة، التوظيف اليهودي المدهش للمال والاقتصاد^(١٦).

ونحن نرى في الواقع ان الامة الاسلامية قد حباها الله بسمات لا تتمثل في اية امة من الامم فمن المعروف بان الواقع الجغرافية والتاريخي والسكاني والدين واللغة والمصير المشترك والثروات الاقتصادية كلها عوامل تعزز الفعل الوجودي لها، غير ان الواقع المريع للامة يسير بالاتجاه المعاكس والذي كرس عوامل الفرقة والضعف والذي آلت اليه حتى الوقت الحاضر، فهل هي كيوه للامة؟ ربما ونأمل ان تصحى على واقعا وتستهض عوامل قوتها ووجدتها وتلعب دورها الريادي والحضاري والانساني كما هو شأنها دوماً، فان نهضة اوربا استمدت مقوماتها من مآثر الامة العربية ومكوناتها وانجازاتها العلمية الحضارية.

ويبادر مؤرخنا بإثارة تساؤلاته وهي في ذات الوقت تدلل على السبل الحقيقية لقوة الامة الاسلامية وكيف سيغدوا واقعا في المواجهة لو اتخذت تلك السبل منهجاً للتعبير عن عنفوانها وعزتها، فيقول: "هل حاولنا ان نتحقق بالقوة السياسية، ولو في حدودها الدنيا من مطالب الوحدة او الاتحاد.. هل حاولنا ان نتحقق بالقوة العسكرية فنبنينا سلاحنا بأيدينا بدلاً من ان نتسورده.. هل حاولنا ان نتحقق بقدر من الوحدة الثقافية التي تتميز بها الامم والحضارات، ثم قبل هذا او ذلك هل حاولنا ان نتمحص بعقيدتنا التي اخرجتنا من ضيق الدنيا الى سعتها.. العقيدة التي منحتنا القدرة على تحرير فلسطين ودخول بيت المقدس مرتين"^(١٧) وهنا نقول حقاً ان تلك الاجوبة ستبقى معلقة ما دام العرب والمسلمون ساهون سادرون لايفقهون حقيقة المرحلة وما يخطط لهم في الخفاء والعلن، وبخاصة ان اليهود قد اعتمدوا في اعداد استراتيجيتهم العدوانية القائمة على الضم والقضم للاراضي العربية الممتدة على النفس الطويل في الاعداد والتخطيط والتجهيز.

من الثابت ان كل الادارات الاميركية المتعاقبة تعمل على ارضاء "اسرائيل" وتدعمها بكل السبل المتاحة، حتى ان أي رئيس للولايات المتحدة الامريكية لا يمكن ان يجلس في البيت الابيض دون مباركة اسرائيل وخطب ودها؟ وتأسيساً على ذلك فان مؤرخنا يثير تساؤلاً مشوباً بالسخرية والتهكم في محاولة للإجابة عليه واستخلاص غاية ذلك الخنوع الامريكي لاسرائيل بقوله: "يتساءل المرء كره اخرى ما الذي يرغب امريكا سيدة العالم، على التراجع امام اسرائيل (المضطهدة) و (المحاصرة) وربما العاجزة عن الدفاع عن امنها السياسي والاقتصادي في كل مرة؟!" ويمضي الدكتور عماد الدين خليل في ايضاح رأيه

متحريراً الدقة في تشخيص الاسباب الحقيقية وراء ذلك بقوله: "ثمة دوافع شتى واضحة تماماً للعيان قد تمنحنا الجواب، ليس اقلها بطبيعة الحال قدرة الصوت اليهودي في الساحة الامريكية على التحكم، بدرجة او بأخرى، في مصير الانتخابات بشتى مستوياتها، وصولاً الى الرجل الاعلى الذي يقود امريكا من موقعه الرئاسي في البيت الابيض"^(١٨).

وفي هذا نؤيد ما ذهب اليه الدكتور عماد الدين خليل ونورد ما نشرته جريدة ازمنا نيويورك تايمز N.Y. Times في عددها الالكتروني الصادر في ٢٣ تشرين الاول ٢٠٠٨ عن موقف المرشحين للرئاسة الامريكية من اسرائيل خلال اشتداد حمى الانتخابات قائلة: "لاشك ان امريكا تحتاج لعهد جديد ووجه جديد، قد يحاول ان يزيل ما سببته لها (الحرب ضد الارهاب) من انتقادات، وتغيير صورة القوة العالمية التي لا تضع وزناً لغير القوة مقياساً بين الامم، وفي كل الحالات يبقى الحال العربي بمشاكله المزمنة في هامش الاجنده للمرشحين كلاهما [جو مكين وباراك اوباما]، فالاولويات لديهما طبعاً هي ايجاد طرق للخروج من ازمة المال الامريكية يأتي بعدها دور السباق الاعتيادي على ارضاء الجانب الاسرائيلي وحماية اسرائيل"^(١٩).

وفي اسرائيل مجموعة من الاحزاب العنصرية المتطرفة المغمسة ايديها بدماء العرب الفلسطينيين الابرياء، ومنها حزب الليكود^(٢٠) والذي يعده مؤرخنا من (أعلى مراحل الصهيونية)، وبطبيعة الحال فان ذلك الحزب له باع طويل بالتعديت على حقوق الانسان والارض العربية معاً، فيمضي قائلاً: "الليكود أعلى مراحل الصهيونية ما في هذا شك على الاطلاق، فاذا كانت اسرائيل والدعاوي الصهيونية هي تأسيس إرهابي يستهدف اعتماد القوة المجردة عن منظومة القيم الدينية، والخلقية والانسانية، لتدمير الخصم وسرقة حقه في الوطن والحياة، فان الليكود يمثل اعلى حالات هذا التأسيس باعتماده الاسلوب نفسه وفي اشد وتائره فظاعة وقسوة ولا انسانية"^(٢١). وهنا نؤكد ان السياسات العنصرية الصهيونية التي انتهجتها الاحزاب الصهيونية المختلفة كأحزاب، العمل والليكود وشاس اثبتت بأنهم ينهلون من مؤئل واحد في حقدهم وتجاوزهم وتعدياتهم على الحقوق العربية في فلسطين وأنهم جميعاً يمثلون الفكر الصهيوني تطبيقاً عملياً وتشهد على ذلك مجازر العصابات الصهيونية، المتشربة بالفكر الصهيوني في دير ياسين سنة ١٩٤٨ مروراً بكل المجازر الدموية حتى مجزرة غزة سنة ٢٠٠٩.

ويختار مؤرخنا احدى الشخصيات الصهيونية الاكثر دموية في تاريخ الصهيونية وفضائعها في فلسطين المتمثلة بـ (ارئيل شارون) وهو القيادي المعروف في اكثر من حكومة اسرائيلية، من اجل تحليل خصائص الدعوات المتمثلة بهذا الشخص الذي يصفه بأنه ليس حالة طارئة او استثنائية، وانما هو انعكاس امين للفلسفة التي تبنى عليها الصهيونية، وعاداتها واساليبها في العمل" وبفكره النير وحسه التاريخي يربط الدكتور عماد الدين خليل بين حوادث التاريخ بعضها مع الاخر فيقارن بين تلك الشخصية واخرى عبر التاريخ لعبت ادوارها العدوانية خلال الحروب الصليبية والفترات اللاحقة فيقول: "في فلسطين تم سحق العمود الفقري للوجود الصليبي المغتصب في ديارنا، وفي فلسطين أُبِيد الجيش المغولي الذي لم يهزم من قبل قط، ويجد المرء نفسه مرغماً على وضع (شارون) جنباً الى جنب مع الارهابي الصليبي (رينولد دي شاتيون)^(٢٢) حاكم الكرك والشوبك زمن الاستيطان الصليبي والذي قتله صلاح الدين بيديه.. الى جنب الارهابي المغولي (كتبغا)^(٢٣) الذي لقي مصرعه في عين جالوت جنوب طبرية"^(٢٤).

ان الارهابي ارئيل شارون قد لقي عقاب ربه قبل عقاب ولعنة التاريخ عليه، فهذا هو شارون قد توفي سريراً منذ ما يزيد عن السنتين وفاقداً للوعي وراقداً في احدى المستشفيات، وربما اراد الله سبحانه وتعالى ان يجعله عبرة للمتجبرين والمتعجرفين والمعتدين الصهاينة وغيرهم ممن اعتدوا وتجاوزوا على حقوق الشعب العربي في فلسطين. ويمضي الدكتور عماد الدين خليل في ايضاح المدلول التاريخي لهؤلاء الارهابيين بقوله: "الطغاة الثلاثة كانوا يعتقدون بأنهم وضعوا فلسطين في جيوبهم.. هاجم (شاتيون) بلاد الحجاز وكان يحلم بدخول مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونبش قبره الشريف! وصل (كتبغا) الى قيادة المماليك في مصر رسالة سيده هو لاكو ان يفتحوا لقواته ابواب القاهرة والاجل عاليها سافلها! وكذلك اعلن شارون غير مرة انه سيصفي حسابيه مع الفلسطينيين"^(٢٥). غير ان شارون رقد دون رجعة والفلسطينيون باقون ما دامت أرضهم كذلك.

ولقد تعرضت الاراضي الفلسطينية الى المزيد من القضم والتدمير مع الاعتداء على حرمة الاماكن المقدسة والشعب الفلسطيني المجاهد عبر عقود عدة امام مرأى ومسمع العالم بأسره، وهنا يتساءل مؤرخنا: "اين الرأي العام العالمي؟ شعب بكامله عاجز وبذبح، فأين الرأي العام، هل غاب (الاحساس) وانعدمت (الغيرة) وضاعت (النخوة) وذبحت

منظومة القيم (الخلقية) لدى الانسان والمجتمعات والشعوب المعاصرة" ثم يعود ويجيب على تلك التساؤلات بقوله: "نحن الذين ضعفنا في خيالنا وعبر شبكة دفاعاتنا المتهرئة عن الذات عبر نصف القرن الاخير، شبحاً يدعى (الرأي العام العالمي) واريدناه من حيث هو غير موجود اساساً، او انه موجود لكنه لا يعدو ان يكون حالة شبحية لا تملك القدرة على الفعل والتغيير"^(٢٦).

لا نذيع سراً حينما نقول بان بعض الانظمة العربية قد ساهمت بشكل مباشر او غير مباشر في حالة السكون والاذعان التي سادت الوضع العربي والايغال في حالة الانكسار التي يعاني منها العرب منذ هزيمة حزيران ١٩٦٧ من خلال وأد أي محاولة لتصعيد حالة المواجهة مع اسرائيل، فضلاً عن محاولة كم الافواه والاصوات المتصاعدة لتحرير الاراضي المغتصبة.

ونحن نرى ان الشعب العربي المسلم ذي الصوت الهادر في كل بقاعه قد عبر عن تناسره الإسلامي والعروبي لقضيتهم المركزية فلسطين، غير ان ردة فعل أنظمتهم العربية قد خيبت آمالهم العريضة، وذلك من خلال مواقفهم الغير مبالية لما يحيق في فلسطين والى آمال وتطلعات الجماهير العربية من المحيط الى الخليج وفي كل المناسبات التي تعرضت لها القضية الفلسطينية الى الخطوب.

وهنا يعود مؤرخنا الى تحليل الواقع المرير الذي يعيشه الإنسان العربي المسلم وما آلت إليه قضية فلسطين وهي القضية العربية المركزية لكل العرب والمسلمين في العالم فيقول: "ان المصير المحزن الذي آلت إليه قضية فلسطين، والطريق المسدود الذي انتهت اليه المحاولات الرامية لاستعادة ولو أجزاء محدودة فحسب من حقنا السليب، انما يعود الى غياب الانسان المسلم عن (القضية) في شتى أبعادها ومساحاتها"^(٢٧).

اننا نرى ان العربي المسلم المنسلح بسلاح الايمان والعقيدة هو ذي الإنجاز التاريخي البطولي عند توفر القيادات المخلصة الكفوءة التي توجهه بالاتجاه الصحيح وتكون نيراساً وعوناً له في استرجاع الاراضي السلبية المغتصبة من الاعداء التاريخيين للامة العربية الاسلامية، وان الانسان العربي المسلم حينما تتوفر له الشروط الذاتية الموضوعية يمكن ان يصنع الكثير من الانجازات الصعبة في الزمن الصعب.

ولايجد مؤرخنا بدأ من عقد المقارنة بين ما انجزه العربي المسلم زمن الفتوحات الاسلامية وهو اصل التحديات والمحن وما امتلكه من خصائص وخصال عبر التاريخ بقوله:

"الانسان المسلم، حفيد ابن الخطاب والناصر صلاح الدين، يملك من الايمان والشجاعة والثقة واليقين والفتنة والتفاني والوعي بمجريات الامور وخلفياتها المنظورة والخفية ما لايطمع العربي المعاصر الحصول على عشر معشاره" وهنا يوضح مفكرنا الأسباب الحقيقية التي جعلت الهوية سحيقة بين الانسان العربي المسلم في تلك الحقب والعربي المسلم المعاصر، فيقول: "هذا العربي الذي يعاني خواءاً روحياً محزناً، وفراغاً عقائدياً مخيفاً وتضخلاً ثقافياً ملحوظاً، واحساساً عميقاً متأصلاً بالنقص والضالة، الأمر الذي يدفعه دفعا الى الارتقاء في احضان الدعوات الوافدة كيلا يقال عنه انه غير عقائدي. رغم ان هذه الدعوات هي التي أسهمت في صنع الصهيونية وأرضعتها لبين الحق والكراهية"^(٢٨). واننا نرى بأن هذا التعميم لا يمكن بأي حال من الاحوال اتخاذه الاطار العام لعقد المقارنة بين ما انجزه المسلم زمن الفتوحات الاسلامية والمسلم المعاصر. الذي انجز ما تمليه عليه شهامته وغيرته على دينه في مواجهات عدة مع الغاصبين في اسرائيل سواء في معارك ١٩٤٨ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ و الانتفاضات المتعددة للشعب الفلسطيني المقاوم حتى الآن (٢٠١٠)، فضلاً عن المواجهات والادوار التي اضطلع بها المثقفون والاكاديميون والكتاب والادباء وحتى الفنانون ضمن تخصصاتهم والتي تصب باتجاه الدفاع عن الحقوق المغتصبة العربية عموماً وفي ارض فلسطين خصوصاً.

واخيراً فان مفكرنا الاسلامي يوجه سهام نقده ويعبر عن شدة غضبه واستتكاره لبعض الاطراف التي اعترفت باسرائيل والأخرى التي تسير باتجاه التطبيع ويفسر ذلك بالارتكاز على الخصائص الفيزيائية وبخاصة الأواني المستطرقة ويقول: "ونحن نعترف باسرائيل نكون قد ازلنا الجدار الاخير الذي يفصلنا عنهم، ويحمينا منهم، وحينذاك ستمضي سنن التاريخ وقوانينه لكي تعمل عملها فيما يشبه قانون الاواني المستطرقة في عالم الفيزياء، فان المستويات العالية ستعمر بدققها المستويات الأدنى، وقد يكون هذا الدفق مترعاً بالسموم، محملاً بالكدر والاحوال"^(٢٩). ويمضي في التبسط وشرح معاني الاعتراف باسرائيل والاثار المترتبة على مستقبل الشعب الفلسطيني العربي بقوله: "ان كان بمقدور الفلسطيني العربي والمسلم ان يتجاوز قوانين الطبيعة والتاريخ، ان يتمرد على سنن الله في العالم، فله ان يقول (للاعتراف) نعم، لانه حينذاك سيجد نداً يملك القدرة على حماية ذاته من التآكل المهزوم المتمركز في المستويات الدنيا، على التخلي عن خصائصه ومقوماته شيئاً فشيئاً باسم التطبيع حيناً، وبأسم قبول الامر الواقع حيناً آخر، ومن خلال تلقي الخبرة والمعونة حيناً ثالثاً وعبر

التلاقح بين الثقافات والافكار حيناً رابعاً، وحتى تحت مظلة السياحة والترفيه وتناسي وزر التاريخ حيناً خامساً^(٣٠).

غير اننا نجد بان الانسان العربي المسلم فطر على الحرية وجبل على استرداد ما اغتصب منه، فان كانت بعض الانظمة سارت باتجاه التطبيع مع الكيان الصهيوني، فهذا لا يمثل آمال ومطمح الشعب العربي، وان الحتمية التاريخية تشير الى ان العرب لا ينامون على ضيم ولا يقبلوا بأقل من استرداد ما غصب منهم.

الختامة:

نستشف من كتابات وطروحات الدكتور عماد الدين خليل، عمق تفكيره بما حاق بالشعب الفلسطيني منذ العصور الاسلامية حتى اواخر القرن العشرين، من اطامح صليبية وما تلاها من مجازر وتجاوزات على الاراضي العربية، ثم يكاد يتكرر المشهد ثانية مع التوسع والاستيطان الصهيوني مع الفارق التاريخي في الزمان وليس في المكان، فالمكان هو فلسطين والاراضي المقدسة، وقادة الاعداء هم هم وان تغيرت اسماؤهم.

وبنظرة المؤرخ الثاقبة ورأيه الحصيف تأتي تحليلات الدكتور عماد الدين خليل حول ظروف الاحتلال الصليبي ثم الصهيوني لفلسطين، مع رسم ابعاد المواقف العربية والاسلامية منهما، وهو يؤمن بان الاراضي السليبية لابد ان تعود يوماً مع تغير الشروط الذاتية والموضوعية السائدة الان في الساحة العربية والاسلامية وسياسات الاذعان والتطبيع المتبعة من بعض الانظمة العربية، وكم تمنى ان تتسم المواقف بتلك الشجاعة والصلابة التي ابداهها الابطال الاوائل امثال نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي.

وقد كانت مواقف الدكتور عماد الدين خليل تتسم بالتفاؤل تارة واخرى بخيبة الامل تبعاً للمواقف العربية والاسلامية حيال القضية المركزية على امتداد عقود متعددة من الزمن. غير انه ما انفك يحدد طبيعة معالجة بعض المواقف العربية المائعة والتنبيه الى ضرورة الاستفادة من النصر المعنوي الذي انجزه الاجداد الذي ينطوي على اعمال بطولية عبر الوحدة والتلاحم وقراءة المشهد العدوانى بشكل صحيح وتحديد ابعاده وافاقه المستقبلية على عموم الوجود العربي.

الهوامش والتعليقات:

- ١ - صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧-٥٨٩هـ/١١٧١-١١٩٣م): هو يوسف بن ايوب بن شاذي، الملقب بالملك الناصر ومؤسس الدولة الأيوبية في مصر والشام، استطاع ان يقضي على الدولة الفاطمية بمصر سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م)، وبعد وفاة نور الدين محمود زنكي سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) تولى صلاح الدين حكم البلاد التي كانت تحت سيطرة نور الدين، فاستولى على بعلبك وحمص وحماء وحلب، له انجازات كبيرة في مقاومة الصليبيين، حيث كان اعظم انتصار له عليهم في فلسطين والساحل الشامي، وكانت معركة حطين المعركة التي مهدت الى تحرير بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) من ايدي المحتلين الصليبيين، للتفاصيل، انظر: دريد عبد القادر نوري (الدكتور)، سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة ٥٧٠-٥٨٩هـ/١١٧٤-١١٩٣م، (بغداد، ١٩٧٦)، ص ٤ وما بعدها.
- ٢ - وهي المعركة الفاصلة التي وقعت بين جيش المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧ وتم تحرير القدس الشريف بموجبها وانهيار مملكة الصليبيين. للتفاصيل انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) الحركة الصليبية، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج ٢، ط ٢، (القاهرة، ١٩٧١)، ص ص ٧٩٦ وما بعدها.
- ٣ - عماد الدين خليل (الدكتور)، الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، (دمشق، ٢٠٠٢)، ص ١٠٥.
- ٤ - المصدر نفسه، ص ١٠٧.
- ٥ - المصدر نفسه، ص ١٠٨.
- ٦ - عماد الدين خليل (الدكتور)، متابعات اسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة، (لندن، ٢٠٠٢)، ص ٣٦.
- ٧ - هو عماد الدين زنكي بن عبد الله ابو المظفر الاتابك، الملك المنصور عماد الدين، قائد عسكري وحاكم مسلم، تركي الاصل، حكم أجزاء من بلاد الشام وحارب الصليبيين، للمزيد من التفاصيل عنه، عماد الدين خليل (الدكتور)، عماد الدين زنكي، (الموصل، ١٩٨٥)، ص ٣١.
- ٨ - خليل، متابعات إسلامية، ص ٣٦.
- ٩ - عماد الدين خليل (الدكتور)، الطريق الى فلسطين، (عمان، ٢٠٠٨)، ص ٥.
- ١٠ - المصدر نفسه، ص ٧٢.
- ١١ - نور الدين بن محمود زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م): ملك الشام وديار الجزيرة ومصر بعد وفاة والده عماد الدين زنكي سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م) وكان تابعاً للدولة السلجوقية، فاستقل وضم الى ملكه دمشق مدة عشرين سنة، واستطاع محاربة الصليبيين وكان يباشر القتال بنفسه، وهو الذي حصن قلاع الشام وبنى الاسوار على مدنها، وبنى مدارس كثيرة في بلاد

الشام، وهو اول من بنى داراً للحديث وبنى الجامع النوري بالموصل، وتصدى للحملة الصليبية الثانية (٥٤٢هـ/١١٤٧م) على دمشق، وقد توفي سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) بدمشق وقبره بالمدرسة النورية. انظر: محمد سهيل طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ط ١ (بيروت، ١٩٩٩)، ص ١١٧.

١٢ - وهو محمد بن قلاوون الملقب بالملك الناصر من كبار ملوك الدولة القلاوونية، له أثار عمرانية ضخمة وتاريخ حافل بالاعمال، تولى سلطنة مصر والشام سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٣م) وهو صبي، واعيد للسلطنة على مصر سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) وهو كالمحجور عليه الى ان استطاع سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) من قتل الظاهر بيبرس بيده، وامتلك قيادة الدولة فخطب له في مصر وطرابلس الغرب والشام والحجاز والعراق وديار بكر والروم، واستمر في حكمه مدة ٣٢ سنة وتوفي بالقاهرة سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م). ومما يذكر قد جرى في عهد دولة المماليك صد ودحر المغول الذين تعاونوا مع الصليبيين في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م، انظر: خير الدين الزركلي: الاعلام، ج٧، (بيروت، ١٩٧٩)، ص ١١.

١٣ - خليل، الطريق الى فلسطين، ص ٩٧.

١٤ - خليل، متابعات اسلامية..، ص ص ٢٧-٢٨.

١٥ - عماد الدين خليل (الدكتور)، اولى الملاحم القرن، (بيروت، ٢٠٠٢)، ص ص ٣٤-٣٦.

١٦ - المصدر نفسه، ص ١٨.

١٧ - المصدر نفسه، ص ص ١٨-١٩.

١٨ - عماد الدين خليل (الدكتور)، الرؤية الان في هموم فلسطين والعالم العربي، (لندن، ٢٠٠١)، ص ١١٢.

١٩ - انظر مقال بعنوان (الانتخابات الامريكية) على الرابط المتاح على الموقع: <http://canyamacan.wordpress.com/2008/10/26>

٢٠ - ارتبط اسمه في الازهان بكل الحروب التي اندلعت بين العرب اسرائيل بدءاً من عام ١٩٤٨ وحتى ١٩٨٢ فضلاً عن كونه المسؤول الاول والمباشر عن عدة مجازر بحق الفلسطينيين مثل قبية عام ١٩٥٣ وصبراوشاتيلا ١٩٨٢ وجنين ٢٠٠١ وسواها من قمع الفلسطينيين. وقد ولد ارئيل صموئيل مردخاي شرايبي (ارئيل شارون) في قرية ميلان الفسطينية عام ١٩٢٨ لاسرة من اصول بولندية والتحق وهو في الرابعة عشرة من عمره بعصابة الهاغانا. للمزيد عنه انظر:

الرابط المتاح على موقع اسلام ويب islamweb.net

٢١ - خليل، اولى الملاحم..، ص ١١٢.

٢٢- رينولد دي شاتيون (Renauld de Chatillon) عرف باسم ارناط في المصادر الاسلامية اثناء الحرب الصليبية الثالثة والده من شاتيون بفرنسا. توجه رينالد الى بيت المقدس ووضع نفسه اولاً تحت امرة الملك بلدوني الثالث وقد اسر من قبل المسلمين (١١٦٠-١١٦٧) في سوريا وسجن مدة ١٦ عام، واصبح فيما بعد اميراً على الكرك والشوبك من قبل الملك بلدوني الرابع، وقد اعترض احدى قوافل المسلمين التي كانت تحمل الثروات والبضائع وبذلك خرق الهدنة التي عقدت بين بلدوني الرابع وصلاح الدين وقد استولى على كل ما تحمله من ثروة واسر من فيها سنة ١١٨١، لكن صلاح الدين تمكن بعد سنوات من اسره وذلك في معركة حطين سنة ١١٨٧م، وقام بقتله. انظر: هانس ابرهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: عماد الدين غانم (ليبيا، ١٩٩٠)، ص ٤٧٠-٤٧١.

٢٣- هو كتبغا بن عبد الله المنصوري الملقب بالملك العادل مملوك من المماليك البحرية في مصر والشام اصله من سبي التتار من عسكر هولالكو اخذه الملك المنصور قلاوون في واقعة حمص الاولى وجعله من مماليكه، تولى منصب نائب السلطنة في عهد محمد بن قلاوون وخلع الاخير لصغر سنه فاصبح كتبغا القائم بالامور بدله سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) وتلقب بالملك العادل واستمر في منصبه مدة سنتان، وعند رجوع محمد بن قلاوون الى منصبه سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٦م) اعطاه مملكة حماه واعمالها فانقل اليها سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) واستمر بها الى ان توفي سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) ونقلت جثته الى دمشق. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٨، (القاهرة، ١٩٦٣)، ص٥٥.

٢٤- خليل، اولى الملاحم...، ص٢٤. ومعركة عين جالوت تعد من اهم المعارك الفاصلة في تاريخ العالم الاسلامي والتي وقعت سنة ١٢٦٠م، وقد انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً على المغول وكانت هذه هي المرة الاولى التي يهزم فيها المغول في معركة حاسمة منذ عهد جنكيز خان، وادت المعركة الى انحسار نفوذ المغول في بلاد الشام وخرجهم منها نهائياً وايقاف المد المغولي المكتسح الذي اسقط الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨م. انظر: المصدر السابق، ص٧٠.

٢٥- خليل، اولى الملاحم...، ص٢٤.

٢٦- المصدر نفسه، ص ص ٢٨-٢٩.

٢٧- خليل، الرؤية الان...، ص٨٦.

٢٨- المصدر نفسه، ص ٨٦.

٢٩- المصدر نفسه، ص٢٥.

٣٠- المصدر نفسه، ص ص ٢٥-٢٦.